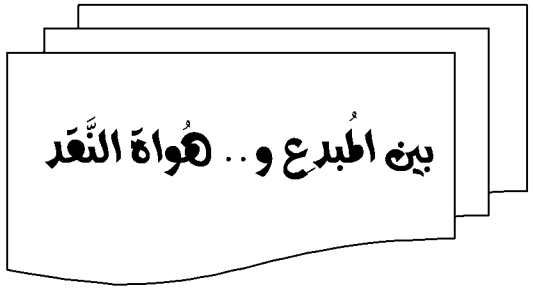

كيف يتعامل المُبدِع مع نقد البرابِرة ؟

"الحياة : هي ذلك السبيل الذي يعترضنا فيه عابرون كثيرون
ليُعرقلوا مسيرنا، فإن أعرناهُم اهتمامًا، تمكّنوا منّا وضلّلونا،
وإن تجاهلناهُم أفلتنا وصنعنا مصيرنا"

الرِّوائي الليبي إبراهيم الكوني

خلال حِوار أجراه الصَّحفي (زهير تيناوي) مع الشَّاعر الرَّاحِل "نزار قبَّاني" عام ١٩٧٨م لصالح مجلَّة النَّهضة الكويتيَّة، أعرب قبَّاني عن رأيه الصَّريح إزاء النَّقد الأدبيّ في وطننا العربيِّ قائلاً:

"النَّقد موقفٌ حضاري، وحين تنتفي العلاقة الحَضاريَّة بين النَّاقد وبين الأثر المَنقود يُصبُح النَّقد وليمة همجيَّة. مُنذُ ثلاثين عامًا وأعمالي الشِّعريَّة تُناقَش.. وانطباعي عمَّا كُتِبَ عنِّي هو أنَّ القِلَّة القليلة من نُقَّادي كانت مُتحضِّرة، أمَّا الأكثريَّة كانت من البَرابرة".

وفي الفترة الرَّاهنة من عُمر الأدب العربي؛ صرنا نُلاحظ تصاعدًا هائلاً في وتيرة ما يمكننا تسميته – بالاعتذار من نزار – "نقد البرابِرة". وإذا كان النَّقد الصَّريح، الممتاز، القائم على أسُسٍ سَليمة، ضروريًا لتغذية الحراك الإبداعي وإنضاجه، فإنَّ لنماذج النَّقد التي تتعامل مع المُبدع وعمله الإبداعي بفوقيَّة وألفاظ هجوميَّة واضحة دورها السَّلبيّ في تسميم معنويَّات الأديب بدلاً من تحريض موهبته على النّمو والتقدُّم، ومن ثمَّ المُساهمة في وأد أقلام كانت تعِدُ بمزيدٍ من النّضج والتقدُّم وإثراء مستقبل الحضارة العربيَّة لو تعامل معها النَّقد بعنايةٍ أكبر، إضافةً إلى الدَّور المُروِّع الذي تؤدِّيه تلك الأقلام في إسقاط العَمل الأدبيّ المَنشور قبل أن يقرأه عامّة القُرَّاء بتحريض أذواقهم على عدم مُطالعته، وضرب سُمعته بمقالٍ قصيرٍ يجعل أولئك الذين يحكمون على النَّص بعيون الآخرين لا بعيونهم؛ يُشيعون وُجهة النَّظر السلبيَّة بين الآخرين عن عملٍ لم يقرؤوه أصلاً، فيُحرَم العمل من فُرصته العادلة في الانتشار والقراءة بعينٍ مُستقلَّةٍ مُحايِدة ودون

خلفيَّات سلبيَّة مُسبقة، لا سيِّما وأنَّ مثل تلك السلوكيَّات الهُجوميَّة تنطلق من أفواه وأقلام أشخاص غير مُتخصِّصين بالنَّقد أو تحليل النَّص الأدبي، أو عارفين – على أقلِّ تقدير – بأصول مُخاطبة الآخر.

• • • •

القاص والرّوائي المصري (أحمد طوسون) أشار إلى ضرورة تحلِّي ناقد العمل الأدبي بالموهبة إلى جانب الأدوات النَّقديَّة المُلائمة، وأعرب عن رأيه بقوله: " النقد فعلٌ تالٍ للعملية الإبداعية، ومن المفترض أن يكون عاملاً هامًا مُساعدًا لفعل التلقي عند القراء، كما له دوره في الترويج للأعمال الإبداعية وإلقاء الضوء على الأعمال الهامَّة التي قد تصدر وتُواجُه بالإهمال في ظلِّ عدم وجود مؤسَّسات متخصصة في التسويق والإعلان والترويج للمُنتج الثقافي، لكن النقد في حقيقته فعل إبداعي موازٍ له أهميته في الفرز والتقييم الفني ورسم الحدود بين ما هو إبداعي وما لا ينتمي بصِلة إلى الإبداع، لذا يجب أن تتوفر الموهبة عند من يمارس العَملية النقدية والقدرة على القراءة الصَّحيحة للنصوص ولا يجب أن يستسهل البعض الأمر ويطلق لقب الناقد على كل أكاديمي سبق اسمه حرف دال كبير! أو كل هاوٍ تجرأ على قراءة النصوص ونقدها دون أن يمتلك الأدوات اللازمة، ولا أن نستسيغ حالة السّيولة الكبيرة التي نعيشها ثقافيًا والتي أدت إلى اشتغال الكثيرين بالنقد دون أن يمتلكوا الموهبة اللازمة للإبداع النقدي.

ويُضيف طوسون: "النَّقدُ الحقيقي هو فعلُ بناء لا هدم، وهذا يستلزم أن يتناول الناقد قراءته لأي عمل من الأعمال من منطلق الحُب والتواصل مع العمل الإبداعي وتقريبه من القراء وليس بمنطق الفوقيَّة والتعالي.. وهذا بالضرورة يستتبع أن أي قراءة أو دراسة هي اختيار من الناقد لعمل إبداعي يُريد أن يشرك الآخرين معه في الاستمتاع بما قد يلمسه ويكتشفه من مناطق الإبداع الذي يتميز به هذا العمل عن غيره من الأعمال".

ويستدرك: " لكن الواقع يخالف هذه الرؤية فأغلب نُقادنا لا يتناولون دِراسَة الأعمال الأدبيَّة إلا من خلال تكليفهم بالكِتابة عنها في مؤتمر أو فعالية ثقافية ما أو من خلال طرحها ومناقشتها ضمن رسائل جامعية.. وبذا نُحرَم من أهم ما يتميز به النقد الجاد وهو فكرة الاختيار الذي يتوافق مع ذائقة وحس الناقد الأدبي.. وبتنا أمام ممارسات نقدية روتينية أشبه بالعمل الوظيفي. وربما نلتمس العذر لشباب النقاد، لكن للأسف كبار نقادنا أصبحوا يلهثون خلف حصد الأموال بالبرامج الفضائية وتخلوا عن دورهم في استكشاف وتقديم رؤية حقيقيَّة للمشهد الإبداعي".

ويختم رأيه مؤكّدًا: "على كلٍّ أنا احترم أي قراءة تتناول أعمالي بغض النظر عن الطريقة التي تتناولها بها؛ لإيماني بأن العمل الإبداعي هو المُعبر عن نفسه، وهو الأكثر تأثيرًا وبقاءً عن أي محاولة نقدية تتناوله".

▪ نقدٌ خارج النَّص

أمّا القاص السُّوداني (عبد الرَّحمن سعد) فقد أعرب عن رأيه بقوله: "المُبدِّع والناقد هما وجها عُملة العمليَّة الإبداعية، فالنَّقد الجيِّد هو المُرشد للمبدِّع الخلاَّق، وعملية مُخاض الكتابة الإبداعية عملية ذهنية غاية الإرهاق والألم واللذة، لذا تتطلب أن يكون هناك نقد يوازي تلك الطاقة المُطلقة التي أنتجت النص، والنقد القائم علي أُسُسٍ علمية بعيدًا عن الذاتية وشخصنة الأدب، هو مطلوبٌ ومحمودٌ، أما النقد الانطباعي أو المُتعلِّق بكاتب النص لا النص موضوع النقد، فهو نقدٌ خارج النص وفيه كثير لغط وإحباط لذات الكاتب المُبدِّعة، وللأسف كثير من نُقَّاد اليوم أما يكتبون عن كلِّ شيءٍ جميل؛ وهو ما يكون في إطار المجموعة المتصادقة فيما بينها فكل ما يُنتَج عنها جميل، وبذات المفهوم كل ما ينتجه الآخر قبيح ولا علاقة له بالأدب!! وهذا النوع من النقد لا يُبيِّن للقارئ أي إشارة أو شفرة تمَّ بها معالجة النص التي استند عليها الناقد لتشريح النص، الأمر الذي يُربك المشهد الثقافي بحالة إحباط وكآبة مُستقَّرة".

وعن ردّ فعله الشخصي كأديب إزاء مثل هذا النّوع من النَّقد فقد قال: "في رأيي الخاص أرى بأنَّ الناقد الجيِّد هو كاتب مُبدِع جيِّد في الأصْل، ومتذوِّق لعدة أطعمة من موائد الأدب المتباينة المتنوِّعة. وهنا أذكر بأن أول قصة قصيرة كتبها أديبنا الكبير الطيب صالح كانت بعنوان: "نخلةٌ على الجدولِ" قال عنها ناقد سوداني في ذاك الزمان بأن كاتبها لا يعرف النخيل

ولا طبائع أهل الشمالية، فلو وقف عنده الأديب العالمي الطيب صالح والتفت له لحرمنا من إبداعه الفذ. وأذكر أنني عندما بدأتُ أنشر بعض قصصي القصيرة جدًا في صُحُف الخرطوم، كان كثيرٌ من النُقَّاد يُسفِّهون ما أكتب ويقولون بأن هنالك مُعضلة تجنيس لهذا النوع من الكِتابة، دونما اجتهاد من قِبلهم لمعرفته وتذوُّقه، وهذا نقدٌ مَجَّاني يكتبه مَنْ لا يريد أن يقرأ غير الذي قرأه في مدرج الدرس وأيام صِباه، وردّي علي مثل شاكلة هؤلاء النُقَّاد وأمثالهم بمزيد من الكِتابة والتجاهُل".

▪ فوقيَّة وشُهرة مجَّانيَّة

القاص السّعودي (عبد الله النصر) عبَّر عن رأيه الرّافض لتلك الفئة قائلاً: "للأسف اليوم كثيرًا ما نواجهه من هذه الفئة التي لا تتوافق مع ذوقنا بكل مستوياته، وهي مرفوضة تمامًا. وأعتقد أن هذه الفئة لعدم تحريها الدِّقة في انتقاء الكلمات وخلوها من الألفاظ والأسَاليب المُهذبة وعدم الإلمام بأخلاقيّات النقد، كما أن عدم معرفتها بالشخصية المُبدعة على النحو المَطلوب، فضلاً أنها ترى أن فعلها هذا يندرج ضمن الحُرية الشخصية، ولها الحق في النقد كيفما تشاء، ولا يحق لأحد أن يحجُر رأيها، أو نبذ أسلوبها النقدي. كما أن مثل هذه الفئة كثيرًا ما ترى نفسها فوق الشخصية المُبدعة فتحاول إثبات وجودها.. بل ومُحاولة إيجاد لها مكانة بين النقاد والكُتَّاب والمُبدعين، وتكوين هالة ضوء أو صدى وشهرة مجانية لمن ليسَ له شهرة".

وعن ردود فعله إزاء مثل ذاك الهجوم قال: "أعتقد بأن ردود فعلي تجاه هذه الفئة التي تهدم أكثر مما تبني في حراكنا الثقافي، ستكون بالتهميش والتجاهل وعدم الاكتراث لنقدهم اللا مبني على أسسه العلمية السليمة بل وعدم تلقيه وتبادله والتعاطي معه.. إذ لو واجهتها فإنها ستعتبر ما قدمت ضمن دائرة الاهتمام والأهمية وحققت جزءًا مما تهدف إليه، وكما قيل في الأثر (إذا خاطبكم الجاهلون فقولوا سلامًا).. بل أن التعاطي معها والاهتمام بها والرد عليها ونقاشها سينشئ حالة أخرى هي ضياع الوقت في أمور لا قيمة لها ولا فائدة".

▪ مُحاربة للجمال

الرّوائي المصري (محمد خيري) أشار إلى أنَّ بعض العُقد النّفسيَّة الخاصَّة قد تكون وراء مثل تلك السّلوكيَّات، وعن هذا قال: "لقد ذكرت مدى تأخر هذه العقلية التي يتمتع بها بعض النقاد، ولكن عادةً ما تجدين الضعيف أو المُعقد أو الحقود يتميز برغبته في تدمير أو تحطيم أو محاربة أي شيء جميل أمامه لينقص قيمته وبالتالي يكون قد أثبت لنسفه أنه عبقري ويرى ما لا يراه الغير، يُريد أن يتميز على حساب النقد، هذا ليس نقدًا، النقد لا يكون إلا بنَّاء ويطمح إلى تطوير الغير بإعطاء النصيحة (بتهذيب) وإدلاء الرأي (بتهذيب أيضًا) حتى إن كان العمل تافهًا أو ركيكًا أدبيًا؛ يستطيع الناقد أن يوصل المعنى دون إهانة المُبدع وتحطيمه أمام الغير... فالناقد في كُلّ الحالات لن يكون عظيمًا إذا أهان مبدعًا أو كاتبًا ناشئًا".

و يُضيف: "أنا لا أشجع النقد الذي يجلب نتيجة عكسية لازدهار الأدب، بل أحب النقد البنّاء الودود والهادف للتطوير والتحسين. والناس والقُرَّاء بعد ذلك يُميِّزون بين العمل الجيد والعمل الرَّكيك بأنفسهم، فهم ليسوا أطفالاً بل هم في منتهى الذكاء".

وأخيرًا أكَّد بثقة: "رد فعلي على النقد المُحطِم يكون مقاطعته ولفت النظر إلى النقد البناء، فإذا استمر النقد كما هو أنسحب منه فور صدور أي كلمة هجومية أو غير مقبولة، ودون استئذان".

بينما أكَّد الشّاعر السّوري (محمَّد الحريري) أنَّ للنَّقد الأدبي أصوله، وأفصح عن رأيه بقوله: "أنا ممن يؤمن بمقولة: "رحم اللهُ من أهدى إلينا عُيوبنا"، والنقد الموضوعي الايجابي البنَّاء لا يخيفني؛ فهو أداة التطوير الإبداعي، لكن ما يخيفني هو أن تكون هذه الأداة في يد غير أمينة، مُجحفة، مُتحاملة، زئبقية، هادمة، أي أن تعطى القوس لغير باريها".

ويستطرد: "النقد له أصوله وأدبياته وأغراضه التي إذا ما مورست بحقها أثمرت أدبًا هادفًا مُلتزمًا، ليس النقد أن أدخل قلب الأديب وضميره وأقوّل له ما لم يقل لأصل إلى نتيجة مُسبقة الصنع، تخونه وتحـــزُّبه وتصنفه و....الخ. لا أؤيد النقد المترف الذي يمارسه أفراد قابعون في هناء العيش ورخائه، يصبون جام الحقد على الأديب وما فكَّروا يومًا بمعاناته ورغيفه!".

▪ نقدٌ هادفٌ.. ونقدٌ هادمٌ

بينما أوضح الشَّاعر والنَّاقد العِراقي (د. مقداد رحيم) أنَّ ثمّة فرق بين النَّقد الأدبي الهادف والنَّقد الشّخصي الهادم:

"إن مهمة النقد هي التقويم، وبيان مواضع غنى النص وفقره، وبيان الفقر لا ينبغي أن يكون أو يُعَدَّ هجومًا، وإذا كان في النص فقرٌ فَمردُّهُ إلى استسهال صنعة الأدب من قبل الكَتَبة والمُتشاعرين، وعدم الالتفات إلى أصوله وقواعده، فيقف الناقد الأصيل الحريص وقفة جادة بإزائه لئلا تتسع رقعة التهاون بالقواعد والأصُول. ولكنَّ أغلب المبتدئين في هذه الصنعة ينفرون من النقد وتبيان مواضع الضعف والنقص، ويعدونه انتقاصًا وهجومًا، أو تعاليًا.

أما إذا كان النقد كذلك فعلاً فما هو بنقد أدبي، إنما هو نقد شخصي، وعلينا أن نميزه عن النقد الأدبي الهادف، وألا نلتفت إليه".